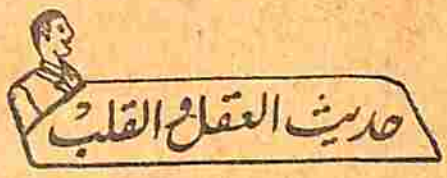

نظر وذوق وخلق

بقلم
الدكتور محمد مصطفى حلمى
أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب بجامعة القاهرة

انقطع المريد المسترشد عن شيخه المرشد شهرا وبعض شهر ، ثم عاد إليه ، وأقبل عليه ، ولم يكد يجلس بين يديه ، حتى أخذ يتحدث إليه عما كان لحديث التذوق والتحقق الذى دار بينهما فى المجلس السابق ، من أثر فى حسه ونفسه ، وفى عقله وقلبه ، وعما راض نفسه عليه إبان الفترة التى انقطع فيها عنه من تذوق للدقائق اللطيفة ، وتحقق بمعرفة الحقائق الشريفة ، مؤثرا فى هذا التحقق وذلك التذوق طريق الوحدة الروحية التى تلتقى فيها وتجتمع عندها كل القوى والملكات النفسية من حسية وعقلية وقلبية .

ولم يقف المريد المسترشد عند حد وصفه لرياضة نفسه على هذه الوحدة الروحية فحسب ، ولا عند الثمرات الذوقية التى قطفها فى ظلها فحسب ، ولكنه تجاوز هذا كله إلى شىء آخر عمد إليه ، وعكف عليه ، ولم يكن أثره فى نفسه أقل من رياضته لها على التذوق والتحقق على الوجه الذى خلص إليه من حديثه السابق مع شيخه : ذلك بأنه أخذ يقص على شيخه قصته مع قصيدة ابن الفارض التائية الكبرى ، وأنه لم يكد ينصرف عن شيخه بعد حديثهما السابق ، حتى أقبل على هذه القصيدة الرائعة يستكشف وجوهها المشرقة ، ويستكشف معانيها المتألقة ، وأنه ما فتئ كذلك يلم بألفاظها ومعانيها مراراً ، ويستلهم أغراضها ومراميها أطواراً ، حتى

ألفى نفسه فى بستان من العوارف والمعارف ، فإذا هو يقطف من الأزهار مالم يكن قد قطف ، ويعرف من الأسرار مالم يكن قد عرف ، وإذا هو بصحبته لسلطان العاشقين ، ودراسته لقصيدة إمام الذائقين ، قد ذاق من الأذواق والأشواق مالم يكن له به سابق عهد .

على أن الشيخ المرشد لم يدع مريده المسترشد يسترسل فى حديثه ويستطرد ، فقد بدا له أنه مأخوذ بروعة ما عكف عليه من قراءات ، ومتعة ما ركن إليه من رياضات ، وأنه قد نسى أو تناسى ما قاله له فى نهاية حديثهما السابق عن التذوق والتحقق ، وهو أنه سيقف معه عند قصيدة ابن الفارض التائية الكبرى ، وقفات يكشف له فيها عما تنطوى عليه من الحقائق والدقائق ، ولكن بعد أن يعود به إلى حديث العقل وحقيقته ، وهو ذلك الحديث الذى طغى عليه حديث الذوق ورقته . وهنا أستوقف الشيخ مريده قائلا له :

ما بالك قد أغرقت واستغرقت فى حديث الذوق والتذوق ، والشوق والتشوق ، والحق والتحقق ؟ وما بال قلبك قد انطلق على سجيته ، فإذا أنت تنطلق معه إلى أبعد حد من حدود الإنطلاق ، وتحلق بروحك فى أعلى الآفاق ؟ وما بالك قد غلبت قلبك على عقلك ، وروحك على رويتك ، وتذوقك على تعقلك ، وتدبيرك على تدبرك ؟ أفلا تذكر أن موضوع حديثنا اليوم هو العقل الذى انتهينا فى حديثنا السابق إلى أن نرجع إليه ، ونعكف عليه ، فنحاول أن نتعرف حقيقته ، ونتبين طبيعته ، حتى يتبين لك معنى ما قصدت إليه حين قلت لك : « كن عقلا واعيا » ، وحتى إذا أردت أن تكون كما أردت لك ، كنت على بينة من أمر هذا العقل ، وعرفت سبيلك إليه ، وطريق اصطناعك له وتعويلك عليه ، بحيث تحقق فى حياتك النظرية والعملية المثل الأعلى الذى ينطوى عليه ويدعو إليه قولى لك : « كن عقلا واعيا » ؟ .

ألا ترى أنك لكى تصل إلى لطائف الحكمة فأنت أحوج ما تكون إلى منهج تعتمد فيه على النظر العقلى بقدر ما تعول على الذوق القلبى ، وأنك بحكم هذا المنهج فأنت أحوج ما تكون إلى ضروب من المعارف وألوان من الرياضات وفنون من المشاهدات ، وأن فى مقدمة هذا كله معرفتك للعقل وماهيته ، والقلب وطبيعته ، فضلا عن معرفتك بغير

العقل والقلب ، وأنه لابد لك لكى يستقيم لك هذا المنهج ، وتستقيم لك به معرفتك ، وتستقيم منك بهذه المعرفة أنظارك وأذواقك وأفعالك وأحوالك ، أن تكون على بينة من دلائل العقل وبرهانه ، كما تكون على بينة من وسائل الذوق وعيانه ، حتى إذا سلكت سبيلك إلى الحياة ، وعملت عملك فيها ، لم تكن حياتك سقيمة ولا عقيمة ، بل كانت حياة منتجة مثمرة تعرف فيها كل شىء بعقلك فتحلله وتعلله وتؤوله ، وتشاهد فيها كل شىء بقلبك فتعاينه وتتذوقه وتحققه ؟

ومهما يكن من شىء فدعنا الآن من هذا الحديث المعاد الذى سقتنا فيه إلى التكرار ، كلما بدا منك باد من الإصرار ، وقف معى لحظة عند العقل ، فلعلك أن تجد بعض ما ينفع أو يشفع أو يرفع ، ويعينك على تحقيق الكمال العلمى والعملى ، وهو ذلك المثل الأعلى الذى أردت أن آخذك به فأقره فى عقلك وقلبك ، وأن تأخذ به نفسك فتحققه فى علمك وعملك .

قال المريد المسترشد وقد بدت عليه بوادى الرضا والاقتناع بكلام شيخه المرشد :

ليس لى بعد الذى قدمت يا سيدى من علم ونصح وإرشاد ، إلا أن أكون عند ما تريد ، ولو أن فى نفسى رغبة تتردد وأحب أن أبديها ، ولعلك أن ترضى عنها ، وتوافقنى عليها .

قال الشيخ المرشد وهو يبتسم إبتسامة الرضا والقبول :

لك يا بنى الحق كل الحق فى إبداء آرائك ، والإفصاح عن رغباتك ، ومن يدرى فلعل فى رغباتك هذه ، وفى آرائك تلك ، ما يعيننا على كشف الحقائق التى نحن بسبيل الكشف عنها ، لا سيما ما أنى قد أخذتك فى تربيتك ورياضتك بمبدأ إطلاق النفس على سجيتها ، لأنى اعتقد أنه ما من رأى يرى ، ولا من رغبة تبدى ، إلا ولكل منهما نفعه وأثره فى محاولة الكشف عن الحقيقة ، فماذا تريد أن تقول ؟

قال المريد المسترشد :

أريد أن أقول إنى أحب أن يدور حديث العقل بيننا اليوم على طريقة السؤال والجواب ، فأسأل أنا وتجيب أنت ، وأن تكون الأسئلة والأجوبة محدودة ، وأن تكون الفاظها وعباراتها واضحة ، دون أن نخرج عن الموضوع ، أو نستطرد فيه ، أو نتزيد فى العبارة

عنه ، أو نمض فى الإشارة إليه .

وهنا ابتسم الشيخ المرشد إبتسامة أخرى لعلها كانت أدل دليل على إعجابه بمريده ، وابتهاجه بكلامه الذى إن دل على شىء فإنما هو يدل على أنه قد أفلح فى تربيته له ، وأن هذه التربية قد عملت عملها ، وأخذت تؤتى أكلها فى نفس المريد المسترشد فإذا هو يسلك مسلكا قويما ، وينهج منهجا سليما ، ويعرف كيف يصطنع التحديد والتوضيح حتى يكون الكلام واضحا مستقيما . ثم قال له :

ذلك ما كنت أبغى ، ولقد والله أصبت ما فى نفسى ، وما كنت لأدير هذا الحديث بينى وبينك إلا لأصل من نفسك وعقلك وقلبك إلى بعض ما أريد من تصفية وتنقية وتزكية وتحلية ، وها أنذا أحمد الله على أنى قد وصلت من ذلك إلى ما كنت أريد منك ، وما عمدت إلى أن آخذك به ، وأروضك عليه ، سواء فى النظر أو فى العمل ، وسواء مع نفسك أو مع غيرك ، وها أنت قد بدأ فكرك ينظم ، ومنهجك يقوم ، وقولك يحدد ، فإذا النهج الواضح محجتك ، وإذا المنهج الموضح وسيلتك ، ومن كان هذا منهجه ، وذلك نهجه ، كان على كشف الحقيقة أقدر ، وكان الحق على يديه أظهر .

وهكذا يتبين لك يا بنى أنك إذا أردت أن تفلسف أو تتصوف ، وأن تكون صاحب بحث ونظر أو صاحب وجدو ذوق ، أو مؤلفا بين نظر العقل وبين ذوق القلب ، فكن أولا صاحب منهج ، وليكن منهجك مزاجا من مبادىء علمية ومبادىء عملية : فأنت فى بحثك عن الحقيقة بعقلك ، أو فى تذوقك لها بقلبك ، محتاج إلى منهج قوامه العلم والخلق ، ولا تحسبن أن العلم شىء ، وأن الخلق شىء آخر ، وأن أحدهما يمكن أن ينفصل عن الآخر ، أو أن أحدهما يمكن أن يقوم أو يستقيم له الأمر بدون الآخر ، بل اعلم أنه لاخير فى علم بغير خلق ، كما أنه لاخير فى عالم يزعم أنه من أصحاب الفضيلة العلمية وهو أعرى ما يكون عن الفضيلة العملية وأمعن ما يكون فى الرذيلة الخلقية . وإياك أن يكون مثلك كمثل هؤلاء الذين يصلون عن هذا الطريق أو ذاك إلى كراسى العلم وهم خلو من الخلق ، يرددون الفاظا وعبارات ، ويملأون صفحات وصفحات ، ويزعمون لأنفسهم وللناس أنهم علماء ، ويوهمون أنفسهم أو يوهمهم الناس بأنهم فضلاء ، والواقع

أنهم ليسوا من أولئك ولا من هؤلاء ، ذلك بأن أيديهم وإن جرت بالأقلام ، وألسنتهم وإن نطقت بالكلام ، إلا أن صدورهم قد خلت من القلب النقى والضمير الحى .

وهكذا يتبين لك يا بنى مرة أخرى أنه لابد لك من أن تقيم حياتك على دعائم علمية وعملية معا ، ومن أن تصطنع فيها منهجا قوامه النظر العقلى السليم ، والذوق القلبى المستقيم ، والخلق النقى القويم ، حتى إذا عرضت لمعرفة من المعارف ، أو للطيفة من اللطائف ، أو لمعنى من المعانى السامية ، أو لمبدأ من المبادىء العالية ، كنت بمأمن من الوقوع فى الزلات وبمنجاة من التعرض للشبهات ، وكنت فى حياتك مثلا أعلى ، خليقا بأن يحتذى .

وحسبك يا بنى بعد هذا كله ، بل وقبل هذا كله ، أن تستمد العناصر التى يتألف منها منهجك من قول أبى الحسن على بن محمد البديهى إذ تحدث عن لطائف الحكمة وعمن تعرض له فقال إنها « إنما تعرض لمن صح ذهنه ، واتسع فكره ، ودق بحثه ، ورق تصفحه ، واستقامت عادته ، واستنار عقله ، وعلت همته ، وخمد شره ، وغلب خيره ، وأصل رأيه ، وجاد تميزه ، وعذب بيانه ، وقرب اتقانه » .

وإذا كان لى بعد الذى قدمت أن أجمل لك المنهج الذى أحب أن تؤثره ولا تنفك عنه ، فأنا أقول لك وأطلب إليك وألح عليك ، أن تكون بالنظر محققا ، وبالذوق متحققا ، وبالخلق متخلقا ، وإلى أن تحقق هذا المنهج على يد عقلك وقلبك وعملك ، أرجو أن التقى بك فى حديثنا المقبل عن العقل ، وأنت أقوم مما كنت قيلا ، وأهدى مما أنت سبيلا .